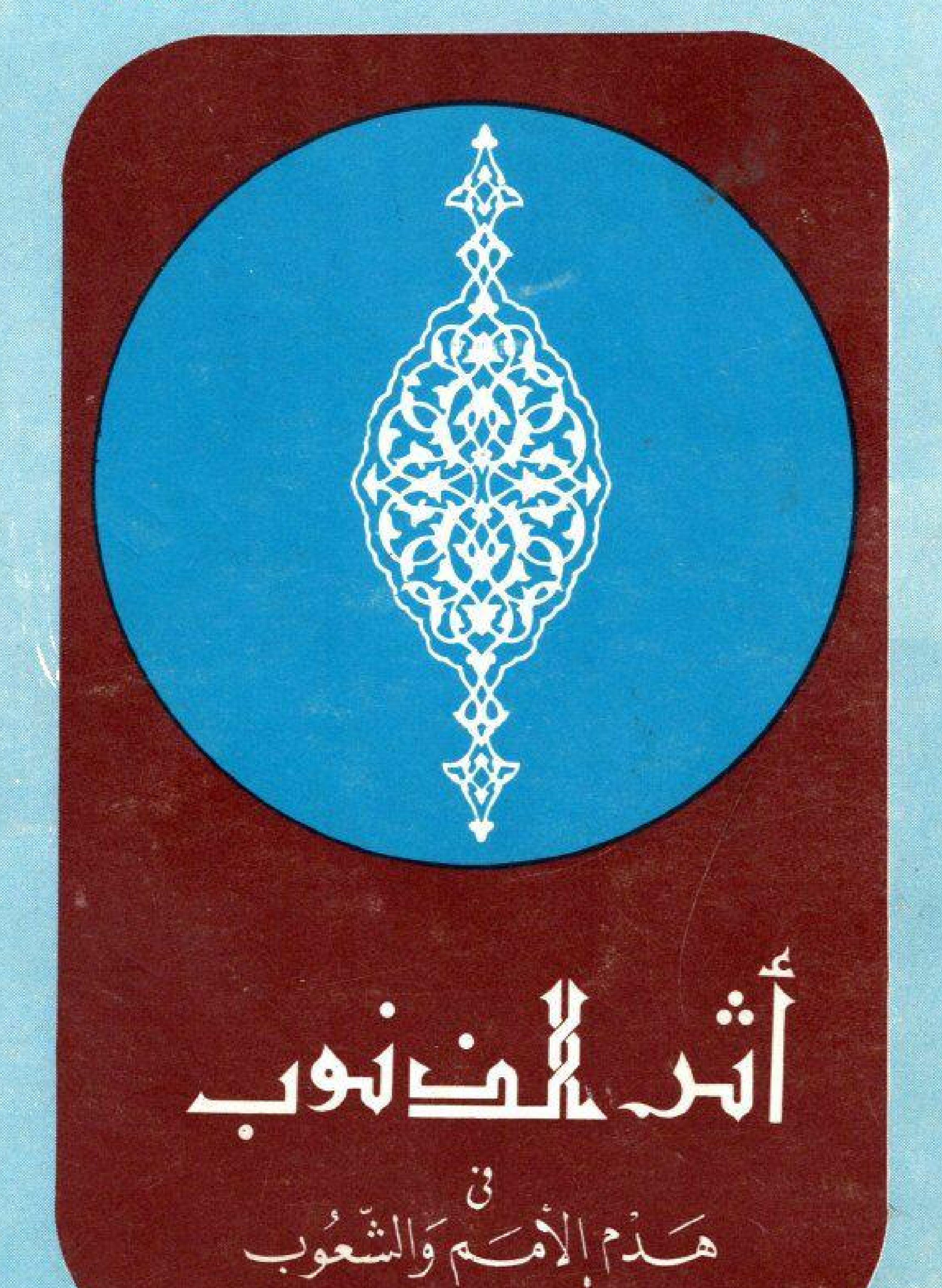
محمد محمود الصواف



أثر الذنوب

في هدم الأمم والشعوب

مع تحيات شباب مسجد الرّميثية
الأسبوع الثقافي الأول

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 18 / ذو الحجة / 1443 هـ
في 17 / 07 / 2022 م هـ

سرمد حاتم شكر السامرائي

محمد محمود الصواف

أثر الذنوب

في

هدم الأمم والشعوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعـــد :

فان الامة العربية والاســـلامية تعيش الان فترات عصيبه .. مليئة بالنكسات والهزائم واشكال التقهقر والتأخر والهزيمه . ولقد تشـكل الفساد فاخذ اشكالا عديدة وصوراً وانماطاً متعددة ومتنوعة شـملت حياة الانسان والمجتمع ، ففساد فى الادارة والحكم وفساد فى النظام والسياسة وفساد فى الاساليب والبرامج وفساد في المناهج والتربية وفساد فى الاقتصاد والتجارة وفساد فى الاخلاق والقيم وفساد فى الاسر والبيوت ، فالفساد بكل صوره وأشكاله قد استشرى فى مجتمعاتنا وضرب بجذوره فى تربتنا حتى زالت جذوره جذور الايمان والخير .

ولقد نتج عن كل ذلك أوضاع غريبه ومشكلات ومعضلات كثيرة ملأت علينا الدنيـا حتى أصبحنـا لا نفكر فى مستقبل ولا نخطط لأجيال قادمة بل شغلنا الشاغل وهمنا الاكبر هو ايجاد طريق للخلاص من هذه المشكلات التى تأصلت جذورها وقويت جذوعها حتى أصبحت أشجاراً خبيثه قائمة فى مجتمعاتنا ولم يكفينا اننا أوجدنا تلك المشكلات بابتعادنا عن ديننا الحنيف وبهجرنا لكتاب الله العزيز وببعدنا عن شـرع الله العظيم واقترافنـا للذنوب والمعـاصى وتساهلنا فى ارتكابهـا وبعدنا عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لم يكفينا هذا بل تجدنا نقصـد الشرق والغرب نبحث عـن حـل لمشكلاتنا . . . فمثلنـا كمن يسعى لحتفه برجليه وتحقق فينا قوله تعالى « وأتل عليهم نبأ الذى

آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه ...» فالله يرفع العباد متى تمسكوا بدينه ويعز شأنهم ويخذلهم متى أخلدوا الى الارض والطين وارتكبوا المعاصى واقترفوا الذنوب وحكموا الهوى فحينئذ ينزل عليهم عقاب الله فتكثر فيهم الفتن والبلايا وتنصب عليهم النكبات والنكسات وتتعقد عليهم أمور حياتهم ومعاشهم .

ونحن اذ نقدم هذا الكتاب الذي كتبه شيخنا الفاضل وأستاذنا الكبير الشيخ محمد محمود الصواف . . والذي قضى عمره فى الدعوه الى الله ونشر الخير والحق والعدل وكان له أكبر الاثر فى انتشار الاسلام فى افريقيا وشرق آسيا ، هذا الكتاب الذي بين فيه مؤلفه ما للذنوب والمعاصى من آثار عظيمة فى المجتمعات والدول نسأل الله تبارك وتعالى أن نكون قد ساهمنا بشيء فى توضيح هذا الدين العظيم وكشف جوانبه للناس علهم يتلمسون الطريق و يهتدون إلى السبيل . نقدمه هديه للعالم الاسلامي ليكمل ما أردنا تحقيقه فى أسبوعنا الثقافى الأول من بيان لبعض المشكلات التى يعانى منها المجتمع الكويتي كنموذج مصغر للعالم الاسلامي وبيان أسباب هذه المشكلات وكيفية الوصول الى علاج ناجح لها من خلال عرض جانب من جوانب الدين الاسلامي العظيم وإنه لشمعة على الطريق . . . نسأل الله ان يهدينا به ويهدي أمتنا ويعود ركب المؤمنين السائرين الى جنات رب العالمين .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

شباب مسجد ضاحية الرميثية
(الأسبوع الثقافى الأول)

ثلاث آيات من كتاب الله

١ ــ قال الله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

٢ ــ وقال تعالى فى سورة القصص :

« وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا . وكنا نحن الوارثين » .

٣ ــ وقال الله تبارك وتعالى فى سورة العنكبوت :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض

وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

(العنكبوت : ٣٦ – ٤٣)

* * *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين العليم الحكيم – اللطيف الخبير بعباده . والهادى إلى صراط مستقيم . له الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه . والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وأكمل الخلق أجمعين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله الطاهرين ، وصحبه الطيبين ، ومن دعا بدعوته ونهج نهجه وسلك سبيله إلى يوم الدين .

وبعد :

فإنه من المعلوم بداهة : أنه ليس بين الله عز وجل وبين أحد من خلقه نسب .

وأنه سبحانه : المتفرد فى خلقه ، وحكمه . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وأنه عز وجل : قد بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وهم الهداة إلى طريق الله ، والمبلغون لشرائع الله .

وأنه سبحانه وتعالى : قد وضع سنناً ثابتة ، وأحكاماً ظاهرة باهرة لا تتغير ولا تتبدل لأحد كائناً من كان .

وأنه سبحانه : سيسأل الخلق أجمعين ، عما كانوا يعملون . لا يترك أحداً حتى رسله المقربين ، وعباده الصالحين قال تعالى : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين »

ومن سنن الله الثابتة : أنه من سلك طريق الله واتبع دين الله فقد فاز ونجا وساد وقاد وإن كان عبداً زنجياً . ومن ترك هداية الله وسلك طريق الشيطان فقد حبط عمله ، وهلك وضل ضلالا بعيداً ، وإن كان سيداً قرشياً .

تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . وأنه ما نزل عذاب إلا بذنب ولا ارتفع إلا بتوبة .

وما يقال عن الأفراد بالنسبة لسنن الله وأحكامه ، فهو نفسه ينسحب على الأمم والشعوب . فالأمة التى تأخذ بأسباب المجد والعز والسؤدد ، وتمشى فى طريق النجاة والسلامة مستهدية بهدى الله عز وجل وشرع الله . هذه الأمة تمجد ، وتسعد ، وتنتصر . ويعمها الأمن والرخاء ويزيدها الله قوة إلى قوتها وعزة إلى عزها .

أما إذا استدبرت طريق الله ، وجانبت شرع الله وسارت فى طريق الهلاك والضلال . هلكت وضلت وأصابها الذل والهوان ، والخزى والخسران . وعمتها الكروب وهى حصيلة الذنوب وعصيان علام الغيوب.

يقول ابن الجوزى رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » قال :

إن الله لا يغير ما بقوم من الكروب حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب . فلا يكون التغيير إلا بعد التغيير . فبظلمنا وذنوبنا صبت علينا المظالم . وهكذا ينتقم الله من الظالم بظالم .

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبدالله الأودى حدثنا أبو أسامة إسماعيل بن مسلم عن الحسن « وهو البصرى » قال فى قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفس محمد بيده ، ما من خدش عود ، ولا اختلاج عرق ، ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر) نقله ابن كثير رحمه الله .

وفى الحديث فى تفسير قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم. يا على: ما أصابكم من مصيبة أى مرض، أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم » ذكره القرطبى فى تفسيره .

والأمثلة فى كتاب الله على مثل هذا لا تحصى ففى كل آية عبرة ، وفى كل مثل ساقه الله عن الأمم السالفة بلاغ وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والإعراض عن الله عز وجل والانشغال بالدنيا وحدها له نتائج وخيمة مظلمة تسوق إلى الهلاك والدمار ، وتنزل معه صواعق العذاب الهون التى تدمر كل شىء أتت عليه .

وأكتفى هنا بثلاثة أمثلة من كتاب الله عز وجل :

المثل الأول
عاد وثمود

قال الله عز وجل مخاطباً نبيه الحبيب محمداً عليه الصلاة والسلام لينذر قومه وينذر الناس أجمعين أن اعرضوا عن الله ونسوا ما ذكروا به . صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فقال تعالى فى سورة فصلت : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون » .

فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون .

فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .
(فصلت آية : ١٢– ١٦)

المثل الثانى
قصة سبأ

وسبأ رجل من العرب كما روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والعذاب نزل على ولد سبأ حين أعرضوا عن الله وبدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار . بعد أن كانوا ينتقلون من نعيم إلى نعيم ، ومن منزل إلى منزل لا ينزلون إلا فى قرية ولا يغدون إلا فى قرية آمنين لا يخافون جوعاً ولا عطشاً ، ولا من أحد ظلماً . كما ذكر الإمام الطبرى رحمه الله فى تفسيره لقوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين » فكفروا النعمة وبطروا وغرهم الترف وهذا النعيم المتواصل المقيم ، ودعوا الله عز وجل أن يباعد بين أسفارهم وأن يجعل بينهم وهم فى اليمن . وبين القرى التى بارك الله فيها وهى فى الشام وهى قرى متواصلة كثيرة الماء والشجر . دعوا الله أن يجعل بينهم وبين هذه القرى فلوات ومفاوز ، وتمنوا أن يركبوا فيها الرواحل ، ويتزودوا الأزواد . فشتتهم الله عندما بطروا نعمته ، وأعرضوا عن امره ، ومزقهم شر ممزق وقال : « فجعلناهم أحاديث »

للناس يضرب بهم المثل فى التشتت والتمزق والضياع . حتى ضرب بهم المثل وقيل : « تفرقوا أيدى سبا » وقطعهم الله فى البلاد كل تقطيع ، حيث أذهب الله عزهم ، ومجدهم ، وثروتهم وأوطانهم ، وشتتهم فى البلاد ، وفرقهم بين العباد كل ذلك لإعراضهم عن الله وبطر النعمة وكفرانها وإليكم وصفهم فى كتاب الله فى سورة سبأ ، وقد سميت السورة باسم سبأ لعظم ما فيها من العبرة والذكرى لمن اعتبر قال الله تبارك وتعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير . سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » .

(سبأ آية : ١٤ – ١٩)

* * *

المثل الثالث
قصة أهل ضروان

وهذه قصة ظاهرة ، ومثل بارز قدمته لنا آيات الله فى سورة القلم عن أهل هذه القرية « ضروان » وهى من قرى اليمن وقد ترادفت الأحاديث عن هذه القصة وتناقل الرواة حديثها . وهى قصة أصحاب الجنة « البستان » التى احترقت وهلكت بذنوب أصحابها عندما خانوا وصية أبيهم الرجل الصالح . وهى قصة نفر من الشباب الجاحد المعاند الذين غرتهم الحياة الدنيا ، وأعماهم المال ، وطغى عليهم حبه . فنسوا الله ، فهلك المال وأسقط فى أيديهم .

لقد كان صاحب هذه الجنة رجلا صالحاً كريماً معطاء يفرق على الفقراء والمساكين مما آتاه الله من ثمار جنته عند قطافها ومن محاصيل حقله يوم حصاده . وجعل لهم نصيباً مفروضاً يزيده كل مرة ويترك للفقراء والمساكين من فواكه بستانه ما أخطأه المنجل ، أو أهمله القاطفون ، أو ألقت به الريح ، أو تناثر حول الفرش الممدودة تحت الأشجار والنخيل . رزقاً حلالا وهو كثير مبارك موفور يكفيهم قوت سنة ، حتى اعتاد الفقراء ذلك .

وكان هذا الشيخ مثالا صادقاً يحتذيه أهل اليسار وأصحاب البساتين فى ضروان وما حولها من القرى يقتدون بمروءته ويفيدون من خبرته وكرمه ،حتى أصبح بستانه مطاف العائذين ومنتجع الغادين والرائحين .

ومرض الرجل الصالح ، وأوصى بنيه الشباب أن يكونوا من بعده أبراراً بالفقراء ، رحماء بالمساكين ، حتى لا يفقدوا منه بعد موته غير شخصه . ولكن ما كاد الرجل يتوارى فى قبره حتى جحد أولاده نصيحته ، ودفنوا معه وصيته . ولم يطالعهم موسم القطاف والحصاد ثمرة تلك الجنة ، حتى تآمروا على الفقراء ، ومنعوهم حقهم الذى اعتادوه أيام أبيهم الصالح ، وأجمعوا أمرهم وأقسموا أن يغدوا على حرثهم عند غلس الفجر الأول لجمع الثمار والعود بها قبل أن يصل إليهم الفقراء بجموعهم . « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . ونسوا الله ولم يسبحوه غير واحد منهم هو أوسطهم وأعقلهم ، وقد أنذرهم وذكرهم ، فلم تنفعهم الذكرى فأرسل الله على جنتهم النار الآكلة ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم المقطوع الممنوع وحرموا كل شىء ، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ويندمون يوم لا ينفع الندم .

وإليكم هذه القصة من كتاب الله قال تعالى :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت

كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

(القلم آية ١٨ — ٣٣)

إن هؤلاء الأبناء الجهلاء لم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن إخفاء شيء عن الله محال . فالله سبحانه لا تغيب عليه غائبة فى الأرض ولا فى السماء . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ولقد كان بعض كفار مكة يقول بعضهم لبعض عن جهالة وضلال : لا تجهروا بأحاديثكم حتى لا يسمعكم إله محمد صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله عز وجل فى شأنهم : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » .

• • •

قصة أهل ضروان فى الحـديث

وقد ترادفت الأحاديث عن قصة أهل ضروان التى تناقل الرواة حديثها وهى قصة ذات عبرة وذكرى - كما رأينا - والحديث الذى ورد فى شأنها حديث عام شامل فى أهل الذنوب والمعاصى وما قد يعجل الله لهم من العقوبات الدنيوية قبل العقوبات فى اليوم الآخر .

فقد روى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم . وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل . وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً كان هيىء له » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فطاف عليها طائف من ربك» قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » . (أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه)

• • •

قصة أهل ضروان فى قصيدة

الشاعر المؤمن الأستاذ الصاوى شعلان له نفثات شعرية رائعة ، خاصة ما قام به ونظمه من شعر شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله . وقد نظم قصة أهل ضروان فى قصيدة من الأدب الإسلامى المعاصر قال فى مطلعها:

الحرص قد يجعل الأحرار عبـدانا
وقد يصوغ من الأمــوال أوثانا

لذا أحببت أن أنقلها لقرائى الكرام وجزى الله الشاعر المسلم كل خير والحمد لله رب العالمين .

الصواف

• • •

قصة ضروان شعراً

للشيخ الصاوى شعلان

الحرص قد يجعل الأحـــرار عبدانا
وقد يصوغ من الأمـــوال أوثانا !
إذا رأيت قـــلوباً بالنـدى بخلت
فاصنع بها فى أثاث البيت جدرانا !
كم قصـــة فى كتاب الله ناطقة
يعيدها النـــاس فى دنياهم الآنا !
أصحاب جنـــة ضروان وقصتها
قد أنزل الله فيها الوحى قــرآنا !
قد كان صاحبها فى الفضـــل ذا شيم
أندى من الروض أزهاراً و أفنـانا !
فـــا بكى حوله الأيتام من سغب
ولا شكا عنده المضعوف حرمانا !
لا يكتفى بزكاة الزرع يبذلهـــا
حتى يضيف إلى الإحسان إحسانا !

وأشرق الصبح فياض الندى عبقا
يختال نوراً وأنداء وريحانا ! !
وأقبل الشيخ يمشى فى مهابته
متوجاً بوقار الشيب جذلانا ! !
يحدو خطاه إلى البستان راعشة
وما يزال شباب القلب ريانا ! !
رأى عجائب صنع الله قد رسمت
ما يسحر اللب أطيافاً وألوانا ! !
والورد فى الحلل الخضراء تحسبه
زمرداً ضم ياقوتاً ومرجانا ! !
ترى الفواكه مما يشتهون بها
طلعاً وطلحاً وأعناباً ورمانا ! !
والطير ترسل فى تسبيح خالقها
ما يعجز الفصحاء اللسن تبيانا ! !
ما صور الله لا يرقى له بشر
سبحانه فى علاه ألف سبحانا ! !
وكان للشيخ أبناء قد ازدهروا
وأورقوا فى ربيع العمر فتيانا ! !
وحين شارف قرباً من نهايته
وإن يوماً وشيك البين قد حانا ! !

أوصى بنيـــه بأن تبقى مكارمـــه

إرثاً يقيم لهم فى المجـــد بنيـــانا ! !

لا تنبتوا الشح بعدى فى مزارعكم

لا تجعلوا جنتى بالحـــرث نيرانا ! !

فما احتجزت عن الأهلين ثروتها

يوم الحصاد ولا أهملت جيرانا ! !

لا يستر الخـــز فى بدو ولا حضر

من كان من حلية المعروف عريانا !

النمـــل تبنى قراها فى تماسكها

والنحل تجنى رحيق الشهد أعوانا ! !

والنهر يسقى العطاشى من مناهله

رياً ورزقاً و يبقى النهر ملآنا ! !

وفارق الشيخ دنيـــا لا يدوم بها

غير الثناء لأهل الفضل عنوانا ! !

فبدل الإخـــوة الأبنـــاء سنته

وارتد إيمانهم بالعهد كفرانا ! !

وأضمروا خطة نكراء غـــادرة

كانت عواقبها ويلا وخذلانا ! !

وأقسموا أن يهبوا مصبحين إلى

جمع الثمـــار ولا يألون كتمانا ! !

كى لا يراعوا بمسكين يطالعهم

فى طمره لاهث الأنفاس جوعانا ! !

فأرسل الملك الجبار نقمته

جزاء ما أضمروا بغياً وعدوانا ! !

ألقت بأشجارهم صرعى فما تركت

حتى لأغصانها الأوراق أكفانا ! !

غدوا على حرثهم صبحاً فما وجدوا

فى الحقل نبتاً ولا فى الأرض بستانا ! !

ضل الطريق بهم بل ضل مذهبهم

وصار مبصرهم فى النور حيرانا ! !

وقال أوسطهم إنى نصحت لكم

فلم أجد بينكم للنصح آذانا ! !

الله يعلم ما تخفى الصدور وما

يكون سراً يراه الله إعلانا ! !

ماذا ظننتم بعلام الغيوب إذن

أكان جهلا بكم أم كان نسيانا ! !

خزائن الله ملأى لا نفاد لها

سبحانه قال : «كن» فالأمر قد كانا ! !

إن الألى حرموا المسكين قد رجعوا

أذل مسكنة منه وحرمانا ! !

وقد مضى قدر لم يمحه ندم

مكر البخيل يحيل الربح خسرانا ! !

إن رمت جنة رضوان فكن حذراً

ولا تكن واحداً من أهل ضروانا ! !

° ° °

وانطلاقاً من هذه المعانى التى ذكرتها فى هذه المقدمة الموجزة والتى كنت قد أوضحت فيها البيان ، وفصلت فيها الكلام بمحاضرة ألقيتها قبل خمسة عشر عاماً بندوة المحاضرات التى تقيمها رابطة العالم الإسلامى أيام الحج من كل عام بمكة المكرمة وكان إلقاؤها فى عام ١٣٨٦ هـ .

أحببت أن أخرجها برسالة مستقلة لعل الله أن ينفع بها أجيالنا وأمتنا التى عمتها الذنوب وركبتها الهموم والكروب . وليس لها والله من عاصم إلا علام الغيوب ربنا الرحمن الرحيم وإلهنا وإله كل شيء نسأله عز وجل أن يردنا إليه رداً جميلا ، وألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، وأن يولى أمورنا خيارنا ولا يولها شرارنا ، انه تبارك وتعالى نعم المولى ونعم النصير والحمد لله أولا وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

محمد محمود الصواف

مكة المكرمة

غرة جمادى الأولى سنة ١٤٠٢هـ.

نص المحاضرة
ذو الحجة سنة ١٣٨٦ هـ
مكة المكرمة

العوامل الخطيرة التي تهدد بنيان الأمة

الأمة الإسلامية أمة هداية وقيادة . اختارها الله لأقدس رسالاته : وأنزل فيها أعظم كتبه . هو النور المبين . والذكر الحكيم . وبعث فيها أكرم رسله وخير أنبيائه وأصفيائه محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه وهى أمة الشهادة « **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** » وقد اجتباها الله عز وجل وهو أعلم حيث يجعل رسالته فحملت الأمانة بصدق وبلغت الدعوة بعزم ، وصدق وجاهدت فى الله حق جهاده . فأكرمها الله وأعزها . وجعلها خير أمة أخرجت للناس وفتح لها أغلاف القلوب . كما فتح أمامها المعاقل والحصون فدخلتها معمرة لامدمرة وبانية لا هادمة ومتآخية متعاونة لا ماكرة ولامستعمرة. وكانت لها السيادة فى المعمورة لأمد يزيد عن الثلاثة عشر قرناً من الزمن . ثم دالت دولتها حين زالت خلافتها وتداعت عليها دول الكفر ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها فمزقتها شر ممزق وجعلت منها أمماً بعد أن كانت أمة واحدة « **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » كما جعلت ديارها ممالك بعد أن كانت مملكة واحدة يحكمها سلطان واحد ولها علم واحد هو علم التوحيد والوحدة :

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) وها هى ذى المصائب لا تزال تنصب على المسلمين . وهذه المحن تتتابع عليهم وتلاحقهم وهذه البلايا والنوائب تترى كأنها لم تجد غير ديارهم داراً ولا غير منازلهم منزلا .

والفوضى السياسية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية ما بالها عشعشت فى ديارنا حتى غدونا وكأننا لسنا أبناء أولئك الأمجاد الذين رفعوا علم الجهاد وفتحوا البلاد وقادوا العباد إلى شاطىء الأمن والسلامة والإسلام، حتى أصبح لهم الأمر والسيادة والسياسة فى أكثر من ربع المعمورة وغدا حكمنا يتردد فى ثلاث قارات فى الكرة الأرضية ؟ وإذا أمرنا أصاخت الدنيا لأمرنا . وإذا نادينا تجاوبت أرجاء الأرض لندائنا ، وإذا دعونا أمنت الإنسانية لدعائنا حتى قال قائلهم :

آمين آمين لا أرضى بواحـــدة حتى أبلغهـــا ألفين آمينـــا

فما دهانا يا ترى حتى قلبت لنا الأيام ظهر المجن وتفرقنا أيدى سبأ وتداعت علينا الأمم كما تتداعى الذئاب وتعوى على الفريسة . وطمع فينا من لا يدفع عن نفسه وسلط علينا الأشرار وتحكم فينا الفجار وهنا على الله وقد اجتبانا من بين الأمم « هو اجتباكم » وهنا على الناس بل وهنا حتى على أنفسنا وأهلينا ؟ .

فما هى الدواعى والعوامل والخطوب التى أوصلتنا إلى هذا المنحدر السحيق ؟ وطوحت بأمتنا حتى جعلتها شلواً ممزقاً ونهباً مقسماً بين الأمم؟

إنى لا أريد أن أذكر الأسباب من وجهة نظر علم الاجتماع وما ذكر فيه من أسباب سقوط ونهوض الأمم . كما لا أريد أن أعرج على الأسباب السياسية والتاريخية وما كان لها من شأن فى تدهور أمتنا الإسلامية وتخلفها عن مقعد الصدارة الذى كانت تتبوؤه بين الأمم ولكننى أريد هنا أن أرجع إلى أصل الأصول وقاعدة القواعد . أريد أن أرجع إلى الشريعة الإسلامية الغراء وهى مصدر عزنا ، ومبدأ فخرنا وتاريخنا ومنتهى آمالنا وغاياتنا فى الحياة .

أريد أن أعود إلى الإسلام العظيم فأستنطقه ليبوح لنا بالأسرار وإن لم يكن فى الإسلام سر والأسباب التى أدت بنا إلى ما نحن عليه الآن من التخلف والانكسار . . . أريد أن أعالج الموضوع من وجهة النظر الإسلامية لنكون على ذكر من أمرنا وليحيي من حي عن بينة

وكلنا يعلم أن الله تبارك وتعالى فى هذه الحياة سنناً لن تتغير ولن تتبدل . سنن فى الكون ، وسنن فى حياة الأمم والأفراد والجماعات .

فالأمة التى تسير على النهج وتمشى فى درب الهداية وتأخذ بمعاقل المجد والجد وتؤتى تقواها تصل إلى مبتغاها وتنال مناها والله ينصرها ويرعاها .

وكلنا يعلم كذلك أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب فالعزيز اليوم بطاعته لله ذليل غداً بعصيانه إن هو عصاه . ومن سلك طريقاً إلى الله سلك الله به طريقاً إلى العز والرفعة والعلياء ، وسلك به طريقاً إلى

الحياة الرغيدة والعيش الهنيء الطيب . . . قال تعالى : « **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** » وصدق الله ، فما أطيب حياة المؤمن وما أهنأه بمولاه وهو غاية مناه فى دنياه وأخراه وهو عز وجل مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وإذا سلك العبد طريقاً إلى الشيطان سلك الله به طريقاً إلى الذل والمهانة والعناء . وما أهون الخلق على الله إن هم أضاعوا أمره وفرطوا فى حكمه ودينه .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال : لما فتحت قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض . فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى فقلت : يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ؟ فقال : ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى وحديث أبى الدرداء هذا يلقى الأضواء الكاشفة على الأسباب والخطوب الكامنة وراء نكبة أمتنا الإسلامية ، فبينما نحن معشر المسلمين أمة قاهرة ظاهرة فى الأرض لنا الملك والسلطان والسيف والصولجان ؛ ولنا الكلمة العليا ؛ إن قلنا أصغت الدنيا لقولنا ؛ وإن أمرنا خضعت الأمم لأمرنا وسلطاننا . فلما تركنا أمر ربنا وخالفنا قواعد ديننا وتنكبنا الطريق المستقيم الذى رسمه الله لنا وخط لنا خطوطه واضحة بينة قوية وأمرنا بالسير فيه وسلوكه ، لما سلكنا هذا السبيل المعوج . صرنا إلى ما صرنا إليه

من الفرقة والشتات والذل والهوان وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء وبلاء إلا وسببه الذنوب والمعاصى وترك الأوامر والنواهى ؟

وهل عذبت أمة من الأمم فى القديم والحديث إلا بذنوبها وما نزل عذاب إلا بذنب ولا ارتفع إلا بتوبة .

• • •

أسئلة وأمثلة

من الذى أخرج أبانا آدم وزوجه من الجنة دار النعيم المقيم إلى دار الآلام والمصائب غير الذنب والعصيان ؟

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم أيام نوح عليه السلام حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال غير الذنوب والعصيان حتى غرق ابن النبى نوح ولم ينفعه صلاح والده لأنه عمل غير صالح ؟

وما الذى سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم صرعى وموتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية . ودمرت مامرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة . ذلك بما كسبت أيديهم ولا يظلم ربك أحداً .

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم، وماتوا عن بكرة أبيهم غير المعاصى والذنوب ؟

وما الذى رفع قرى قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ثم قلبها الله عليهم وجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من

سجيل السماء أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولإخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد . من أوصلهم إلى هذا غير العصيان والذنوب ؟

وما الذى أرسل على قوم شعيب عذاب يوم الظلة ، وأرسل عليهم سحب العذاب كالظلل . فلما صارت فوق رؤوسهم أمطرت عليهم ناراً تلظى ، فأهلكهم الله بذنوبهم وبما كانوا يصنعون ؟

وما الذى أغرق فرعون اللعين وقومه فى البحر حتى نقلت أرواحهم إلى جهنم ، فالأجساد للغرق والأرواح لحرق غير التجبر والتكبر والعصيان ؟

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً كاملا شاملا غير المعاصى والذنوب ؟

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوماً أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار . وقتلوا الرجال وسبوا الذرارى والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال . ثم بعثهم عليهم مرة ثانية . فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيراً ؟

وما الذى سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات ، مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد ومرة بجور الملوك والرؤساء ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى : **« ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »** ونرجو الله عز وجل أن يردنا

إليه رداً جميلا وأن يبعثنا على هذه الأمة الكافرة اللعينة المسيخة يهود حتى نسترد منها الوطن السليب وننزل بها ما تستحق من عذاب الله وبطشه .

أما ترى أيها المسلم ما نزل بالأمم والشعوب من آلام وعقوبات . ومسخ وحرق وغرق . وهل كانت إلا بسبب المعاصي والخطايا والذنوب وقد نزل بنا ما نزل بهم لأننا ارتكبنا ما ارتكبوا من الآثام . ونقض الأحكام والفسوق والعصيان . قد يبدو هذا الرأى غريباً وعجيباً على بعض الناس اليوم ، وقد غرقنا إلى الأذقان فى حياة جاهلية حمقاء . كما سحرتنا أوروبا بتقاليدها وعاداتها ونهجها فى الحياة ، حتى لم نعد نرى المنكر منكراً ولا الذنب الغليظ معصية وإثماً بل لعل بعض الذنوب اليوم مما يفاخر به الناس وبعض المنكرات مما تتزين به الهامات .

ولا نستغرب هذا ونحن فى عصر الفتن وأوان البلايا والمحن وفى عصر غربة الإسلام وأهله . وفى أوساطنا دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها وهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا .

فى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يخرج فى آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ويلبسون للناس مسوح الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل : « أبى تغترون ؟ أم على الله تجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم حيران » .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال على : يأتى على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا رسمه ولا من القرآن إلا اسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهى خراب من الهدى . علماؤهم شر من تحت أديم السماء منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود .

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود عن أبيه : « إذا ظهر الربا والزنا فى قرية أذن الله عز وجل بهلاكها » .

ومن مراسيل الحسن : إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالأرحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم .

وفى سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال : يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن :

ما ظهرت الفاحشة فى قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا .

ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان.

ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم .

وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله من كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم .

وذكر الإمام أحمد رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : توشك القرى أن تخرب وهى عامرة ؟ قال : إذا علا فجارها على أبرارها وساد القبيلة منافقها .

وذكر الأوزاعى رحمه الله عن حسن بن عطية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيظهر شرار أمتى على خيارها حتى يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا » .

هذه كلها نذر خطيرة وأمثلة جديرة بأن يتدارسها المسلمون اليوم حتى يتجنبوا أسباب الانهيار ودواعى الهلاك والدمار التى أصابت الأمم قبلهم وهم مهددون أن يقعوا بمثل ما وقع به أولئك فى سالف الحقب وقد قص علينا القرآن أخبارهم وفى أنبائهم ما فيه مزدجر لقوم يعقلون .

ولمكان العبرة فى مثل هذه الخطوب التى تقوض الممالك وتهدم الشعوب وتقضى على معالم الأمة حتى تمسخها مسخاً لذا فقد جاءت آيات كتاب الله مستفيضة بأخبار من نزل بهم عذاب الله لصدهم عن سبيل الله . وجاء فى كتاب الله الحث على الضرب فى مناكب الأرض والسير فيها والنظر فى آثار الهالكين من الأمم السالفة ليشاهدوا بأنفسهم الدليل القاطع على سوء مغبة الزائغين المنحرفين كيف كان مصرعهم وهلاكهم قال تعالى : « **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** » والله تبارك وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وهذه مكة شرفها الله حيث ضرب الله بها المثل إذ كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فلما حاربت الرسول صلى الله عليه وسلم وتنكرت لدعوته وكفرت بأنعم الله أذاقها الله لباس الجوع ، والخوف بما كانوا يصنعون .

والقصص القرآنى يقطع نياط قلوب المستهزئين ويقطع أفئدة المستكبرين المتجبرين فنجد القرآن العظيم لما ذكر قبائح المشركين من الاعراض والتكذيب والاستهزاء قال تعالى :

« ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » (الأنعام آية ٦٠).

ونراه يحدثنا عن فرعون وشأنه وشأن قومه فيقول عز من قائل : **« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين »** (الدخان آية ٢٥ ــ ٢٩) ويقابل هذا ما قصه علينا القرآن العظيم عن داود عليه السلام أنه لما أطاع ربه وأناب إليه وشكره على نعمه وفضله وإحسانه ألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع وأنعم عليه بابنه سليمان الذى ورثه ملكه وعلمه حكمته فقال :

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير ».
(سبأ الآية ١٠ ــ ١١)

وقد ذكر الحافظ السيوطى فى الدر المنثور أن أبا الشيخ ابن حبان روى بإسناده عن قتادة رضى الله عنه فى قوله تعالى : « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » قال : إنما يجيء التغيير من الناس والتيسير من الله فلا تغيروا ما بكم من نعم الله . وقد روى ابن أبى شيبة وأبو الشيخ ابن حبان وابن مردويه عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : « وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت من معصيتى ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى ، وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتى ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتى إلا تحولت عما يحبون من رحمتى إلى ما يكرهون من عذابى » .

والأمثلة فى هذا الباب لا حصر لها ومما اتفق عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة وما هو مشاهد محسوس بين الأمم والأفراد والجماعات هو : أن عدم شكر النعمة يوجب زوالها وإن طاعة الله عز وجل وشكره على نعمه يوجبان حفظها ودوامها والمزيد منها إلى ما يشاء الله كلما زاد العبد من الشكر زاد له من النعمة وقديماً قد قيل :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

وهذا كتاب الله بين أيدينا وهو لا ينطق إلا بالحق يقص علينا ويبين لنا ما كانت عليه بعض الأمم السالفة من حضارة وعمران وتطاول فى

البنيان وجنات معروشات وغير معروشات فلما أعرضوا عن الله واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير واتبعوا الهوى وزاغوا ، أزاغ الله قلوبهم وبدل نعمهم بالنقم ونعيمهم بالعذاب وأمنهم بالخوف وغناهم بالفقر وجمعهم بالتفرق وخيرهم بالشر وأنزل بهم صنوفاً من العذاب وكلا منهم أخذه الله بذنبه فمنهم من أغرقه ومنهم من أحرقه ومنهم من صب عليهم العذاب صباً حتى أفناهم عن آخرهم ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من أرسل عليهم سيل العرم . قال الله تبارك وتعالى :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » (سبأ الآية ١٥ ــ ١٧) هذا مثل واحد لما جرى لبعض الأمم عندما أعرضوا عن الله وإنك لتجد صورة واضحة فاضحة تتجلى فى هذه الآيات البينات وقد جعلهم الله أحدوثة سائرة وعظة زاجرة بالغة ومثــلا مضروبا ولسانا للحق وحجة على الباطل وأهله وهداية وعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وهاكم ما جاء فى سورة العنكبوت عن أحوال بعض الأمم والشعوب التى أخذها الله بذنوبها وعذبها بعصيانها وفسوقها وفجورها وخروجها من طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان . قال الله تبارك وتعالى :

« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه

القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين» (العنكبوت آية ٣١ — ٣٢)

« ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون . وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولاتعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (العنكبوت آية ٣٣ — ٤٠)

والأمة التى تكون فى نعمة ثم تزول عنها النعمة عقوبة وتأديباً فقل أن ترجع إليها وتعود كما كانت .

عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وكلما أحدث الناس ذنباً أحدث الله عز وجل لهم عقوبة .

ورد عن مالك بن دينار قال : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانكم عقوبة وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن هلال قال : بلغنى

أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام لما أسرع قومه فى المعاصى قال لهم اجتمعوا إلى لأبلغكم رسالة ربى فاجتمعوا إليه وفى يده فخارة فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول لكم : إنكم قد عملتم ذنوباً قد بلغت السماء وإنكم لا تتوبوا منها وتنزعوا عنها إلا إن كسرتكم كما تكسر هذه فألقاها فانكسرت وتفرقت ثم قال : وأفرقكم حتى لا ينتفع بكم ثم أبعث عليكم من لاحظ له فينتقم لى منكم ثم أكون الذى أنتقم لنفسى بعد .

وقد يحرم المرء الرزق بذنبه ولا يجد طعماً ولا لذة للعبادة لمعصيته وذنبه كذلك .

روى النسائى وابن ماجه أحمد وأبو يعلى وغيرهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » . وقال وهيب بن الورد : لا يجد طعم العبادة من عصى الله سبحانه وتعالى بل ولا من هم بمعصيته .

• • •

موت القلوب

قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال الله تبارك وتعالى : « **ادعونى أستجب لكم** » ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة . قيل : وما الذى أماتها ؟ قال : ثمانى خصال :

« عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى : « **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** » فواطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار ، وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فراشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم ؟ » .

ومن منا يستطيع أن ينكر أن هذه الخصال التى ذكرها هذا الرجل الزاهد العابد موجودة فينا قائمة فى مجتمعاتنا الإسلامية حتى أصبحنا يدعو خيارنا فلا يستجاب لهم ونعوذ بالله من المصير الموحش المؤلم الخطر الذى ستنحدر إليه الأمة إذا استمرت على غفلتها وعصيانها وذنوبها .

قصة وعبرة

ذكر الإمام ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسيره لقوله تعالى : **«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها »** ... ذكر قصة ملخصها : أن موسى عليه السلام لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام وكان بلعم ببالعة قرية من قرى البلقاء فلما نزل موسى ببنى إسرائيل أتى قوم بلعم إلى بلعم فقالوا له : يا بلعم إن هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل . وإنا قومك وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم فقال : ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون ، كيف أدعو عليهم ؟ فلم يزالوا به حتى جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشىء إلا حرف به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا حرف لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه : أتدرى يا بلعم ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا . قال : فهذا ما لا أملك . هذا شىء قد غلب عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم : قد ذهبت الآن من الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة . فإنى سوف أمكر لكم واحتال . جملوا النساء واعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه وأمروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى منهم واحد كفيتموهم

ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبي ابنة صور رأس أمته ، برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى ابن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق . فقام إليها فأخذها بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام فقال : إنى أظنك ستقول هذه حرام عليك . فقال موسى : أجل هى حرام عليك لا تقربها . قال : فوالله لا نطيعك فى هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله الطاعون فى بنى إسرائيل . وكان فنحاص ابن العيزار بن هارون غائباً فجاء والطاعون يحوس فى بنى إسرائيل فأخبر الخبر . فأخذ حربته ثم دخل عليه القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء وهو يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون بإذن الله لما رفع المنكر فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فإذا هم سبعون ألفاً . . . . إلى آخر القصة .

ومنذ القديم كانت الفتنة بالنساء لخراب الديار وهلاك الأمصار . وقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغ تحذير منها إذ قال : « ما تركت فتنة من بعدى أضر أو أشد على الرجال من النساء » .

وهؤلاء أخذوا بذنب هذا الفاسق لأنهم تركوه وما يصنع من الإثم والفجور . ولو أخذوا على يديه لما أصابهم ما أصابهم من البلاء بالوباء. ويؤيد هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « إنه كان من كان قبلكم إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهى تعزيراً فقال :

يا هذا اتق الله ، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم لم يره على خطيئته بالأمس فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق إطراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم.

نظر بعض أنبياء بنى إسرائيل إلى ما يصنع بهم بختنصر من التقتيل والتشريد فقال : بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا وقال بختنصر لدانيال : ما الذى سلطنى على قومك ؟ قال عظم خطيئتك وظلم قومى أنفسهم .

وقد تؤخذ الأمة بعذاب شامل لارتكاب بعضها الذنوب والمعاصى . قال تعالى : **« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »** .

« كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها » (الشمس آية ١١ — ١٥) .

وخطب الإمام على كرم الله وجهه مرة فقال : أيها الناس لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل .

أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط . وإنما عقر ناقة ثمود

رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال تعالى : فعقروها فأصبحوا نادمين . فما كان أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة فى الأرض الخوارة .

أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع فى التيه .

• • •

الاعتماد على الرحمة

بعض المذنبين من الناس إن كلمته ناصحاً أو زاجراً له عن الآثام رد عليك بأن رحمة الله واسعة ونحن معتمدون على رحمة الله وكرمه وعفوه وإحسانه ونسى هذا المسكين أنه قد أهمل أمر الله ونهيه وضيعهما فيما ضيع من أمور دينه وغفل هذا المسكين من أن الله عز وجل كما أنه واسع المغفرة فهو تبارك وتعالى شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند والمكابر .

قال معروف الكرخي : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق .

وقال بعض العلماء : من قطع عضوا منك فى الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته فى الآخرة على نحو هذا .

وقيل للحسن : نراك طويل البكاء ، فقال : أخاف أن يطرحنى فى النار ولا يبالى .

وسأل رجل الحسن : فقال يا أبا سعيد : كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تنقطع ؟ فقال :

والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف .

• • •

الاستدراج

قد يسأل سائل ويقول : ما بالنا نرى أقواماً قد امتلأت فجاج الأرض بمفاسدهم ومباذلهم وظلمهم وقتلهم الأنفس بغير الحق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه ،ومع ذلك نراهم وقد درت عليهم الأموال وأنسئ لهم فى الآجال وهم فى نعيم بعيد المنال ، بل هم على حال هى خير الأحوال ! . .

رويدك أيها السائل : إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، إن هؤلاء يملى لهم الله ليستدرجهم من حيث لا يعلمون . . حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ قوله تعالى : « **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد .** » والله تبارك وتعالى يمهل ولا يهمل أبداً . . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج » ثم تلا قوله عز وجل : **« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا**

بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » (الأنعام آية ٤٤ – ٤٥) .

قال بعض السلف : إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره فإنما هو استدراج منه يستدرجك به . . وقد قال تعالى :

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ،وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » (الزخرف آية ٣٣ – ٣) . .

وقد رد الله سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله : « فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن،وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن» (الفجر آية ١٥ – ١٦) كلا : أى ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته ، بل ابتلى هذا بالنعم ، وأكرم هذا بالابتلاء .

قال بعض السلف : رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم ، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم .

ونعوذ بالله من الاستدراج ففيه الفتنة وفيه المحنة ، وفيه السقوط إلى مهاوى الضلال فلا يغترن أحد بما بدا من آثار النعمة على بعض

الطغاة ، فى هذه النعمة النقمة والعذاب الأليم ، والله عز وجل ليس بالغافل عن أحد ، والله عز وجل غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

• • •

حديث للخليفة العباسى أبى جعفر المنصور
وقصة ملك النوبة الحكيم

ذكر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه : تأويل مختلف الحديث ، أنه حدثه رجل من أصحاب الأخبار أن المنصور سمر ذات ليلة فذكر خلفاء بنى أمية وسيرتهم وأنهم لم يزالوا على استقامة . . حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وإتيان اللذات والدخول فى معاصى الله عز وجل ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى وأمناً من مكره تعالى ، فسلبهم الله الملك والعز ونقل عنهم النعمة فقال له صالح بن على : يا أمير المؤمنين ان عبيد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عنهم ، فأخبر فركب إلى عبيد الله فكلمه بكلام عجيب فى هذا النحو لا أحفظه وأزعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليلة وسأله عن ذلك . . فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة فقال :

يا أمير المؤمنين قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لى فافترشته بها وأقمت ثلاثاً فأتانى ملك النوبة وقد خبر أمرنا فدخل على رجل طويل أقنى حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت ما يمنعك

أن تقعد على ثيابنا فقال : إنى ملك وحق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله ، ثم أقبل على فقال لى : لم تشربون الخمور وهى محرمة عليكم فى كتابكم ، فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وسفهاؤنا ، قال : فلم تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم ، قلت : يفعل ذلك جهالنا : قال : فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وهو محرم عليكم ، فقلت : زال عنا الملك وقل أنصارنا فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا ، فأطرق ملياً وجعل يقلب يده وينكت فى الأرض ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم عليكم وركبتم ما نهيتم عنه وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله تعالى العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ نهايتها وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم وإنما الضيافة ثلاث فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدى ، ففعلت ذلك .

هذه عبرة من العبر وما أكثر العبر وما أقل المعتبرين وفى الأرض آيات وذكريات وعبر ولكن الناس عنها غافلون : **« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »** .

وسأذكر لكم النتائج والآثار السيئة التى تحدثها الذنوب والتى بها تتقوض الأمم ويهدم بنيان الشعوب ، سأذكرها كما ذكرها الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى مع الزيادة والشرح لبعض الفقرات وذكر آثارها بالنسبة للأفراد ،

وهل الفرد إلا اللبنة الأولى فى بنيان الأمة فإذا صلح صلحت الأمة وإذا فسد فسدت ، قال ابن القيم رحمه الله :

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله .

١ – فمنها حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب والمعصية تطفىء ذلك النور ، قال تعالى : « **واتقوا الله ويعلمكم الله** » . وقال العالم العارف :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاص

٢ – ومنها : حرمان الرزق وفى المسند : إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

٣ – ومنها : وحشة يجدها العاصى فى قلبه لا يوازيها ولا يقارنها اللذة أصلا ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة ، وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة وما لجرح بميت إيلام . .

٤ – ومنها : الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس لا سيما أهل الخير منهم وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه وبينه وبين نفسه فتراه مستوحشاً من نفسه ، وقال بعض السلف إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خلق ابنى وامرأتى . .

٥ – ومنها : تعسير أموره وعدم اهتدائه إلى الطريق الأقوم . .

٦ ـ ومنها : ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم . .

٧ ـ ومنها : إن المعاصى توهن القلب والبدن وتحرم الإنسان من الطاعة وتقصر العمر وتمحق بركته ويذهب هباء منثوراً . .

٨ ـ ومنها : إن المعاصى تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها . .

٩ ـ ومنها : وهو من أخوفها على العبد ـ إنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية . .

١٠ ـ ومنها : أن ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه . .

١١ ـ ومنها : أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلكها الله عز وجل كالعلو فى الأرض والفساد فيها فإنها ميراث عن فرعون وقومه وهكذا . .

١٢ ـ ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، قال الله تعالى فى سورة الحج : **« ومن يهن الله فما له من مكرم »** . .

وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرهم فهم فى قلوبهم أحقر شىء، وأهونه . .

١٣ – ومنها : إن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه وذلك علامة الهلاك . .

١٤ – ومنها : إن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب الظلم . .

١٥ – ومنها : إن المعصية تورث الذل فإن العز كل العز فى طاعة الله تعالى ، قال تعالى فى سورة فاطر : **«من كان يريد العزة فلله العزة جميعا»** . . أى فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا فى طاعته وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك ، قال الحسن البصرى : إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه . .

١٦ – ومنها : إن المعاصى تفسد العقل فإن للعقل نوراً والمعصية تطفىء نور العقل كما أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف فى قوله تعالى فى سورة المطففين : **« كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »** .

١٧ – ومنها : حرمان دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الملائكة فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى : **« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر**

للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات » . . (غافر آية ٧ – ٩) .

١٨ – ومنها : ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحياء خير كله » ، وقال : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

١٩ – ومنها : إنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره فى قلب العبد ولا بد شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه . .

٢٠ – ومنها : إنها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » . . (الحشر آية ١٨ – ١٩) .

٢١ – ومنها : إنها تزيل النعم وتحل النقم فما أزالت النقم عن العبد نعمة إلا بسبب الذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب ، كما قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة ، وقد قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » .

٢٢ - ومنها : إنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه فإن تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ولا دواء لها إلا تركها ، وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير دواءها ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها وشفاؤها مخالفته فإن استحكم المرض قتل أو كاد . .

وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه كذلك يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة ؛ لا يشبه نعيم أهلها البتة بل التفاوت بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا ولا تحسب أن قوله تعالى : « **إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم** » مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط بل فى دورهم الثلاثة كذلك : أعنى دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، فهؤلاء فى نعيم وهؤلاء فى جحيم وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأى عذاب أشر من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله ؟ بكل واد منه شعبة وكل شىء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب ، ثم يختم ابن القيم رحمه الله حديثه بقوله :

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن وغبن كل الغبن فى هذا العقد وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بعتها بغاية الهوان ، انتهى . .

وابن القيم هنا يشير إلى آية من كتاب الله حددت البائع والمشترى والمبيع والثمن والسفير بين البائع والمشترى وهو قوله تعالى : **« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »** (التوبة آية ١١١) . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والحمد لله رب العالمين . .

• • •

عناصر القوة فى الأمة

إن الله تبارك وتعالى الذى خلق الأمم والشعوب وجعل لكل أمة دورها فى هذا الوجود ، هو عز وجل الذى جعل دور الأمة الإسلامية دور إمامة وزعامة وقيادة . بل جعلهم شهداء الله فى الأرض يحملون أمانته ويبلغون دعوته ويعلون كلمته وينشرون رسالته وقد أمد الله الإسلام بالعناصر التى تؤهل الأمة الإسلامية لهذا المنصب الخطير ؛ منصب القيادة والريادة . ومن هذه العناصر تتألف القوة الحقيقية التى تصل بالأمة إلى غايتها ومبتغاها من العزة والمنعة والمجد والسؤدد ، والسيادة والقيادة والتمكين فى الأرض .

وليست هذه العناصر الحية مقصورة على جانب دون جانب . وإنما تتناول جوانب الحياة جميعاً . وأهم هذه الجوانب تتمثل فى :

١ ــ القوة فى الإيمان الذى يحرر الضمير والوجدان من كل سلطان غير سلطان الله عز وجل .

٢ ــ القوة فى الاستمساك بالحق والاعتصام به اعتصاماً يزهق امامه الباطل ويندحر .

٣ ــ القوة فى العلم المقوم لشخصية الإنسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادى ، وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة .

٤ ــ القوة فى الثروة وتعمير الأرض واستثمار قوى الكون والانتفاع بما فى الطبيعة من بركات الله وخيراته . وتوزيعها على أفراد الأمة الإسلامية بالكفاية والعدل والإحسان من غير تفريط ولا إسراف ولا تضييع ولا ظلم كما هو جار اليوم فى امتنا بكل أسف .

٥ ــ القوة فى إقامة المجتمع على أساس من الحرية والعدالة والمساواة والتشريع السمح والعمل الجاد والمعاشرة الحسنة والحكم الصالح الذى تكون فيه السيادة لله ولشرع الله عز وجل ثم للصالحين من عباد الله .

٦ ــ القوة فى التضحية النبيلة والاستشهاد فى سبيل الحق والجهاد فى سبيل الله من أجل العزة والسيادة والحياة الحرة الكريمة للأمة .

٧ ــ القوة فى احترام العهود والمواثيق والقوة فى الصدق فى تنفيذها.

٨ ــ القوة فى الإسلام العام والقائم على احترام الإنسان وكفالة حقوقه المعاشية والعلمية وغيرها .

٩ ــ القوة فى معرفة الضعف النفسى فى المجتمع الإسلامى والتطهر منه حتى تأخذ النفس طريقها إلى العزةو السمو الروحى .

١٠ ــ القوة فى الوحدة والاتحاد والاعتصام بحبل الله المتين وحبل الله هو الإسلام الذى جاء بتوحيد الله ووحدة الكلمة .

١١ ــ الفوة فى تربية العقول والأجسام والأرواح فى الأمة الإسلامية حتى تتمكن من حمل الأمانة والجهاد فى سبيل الله .

١٢ ـ القوة فى إعداد ما نستطيع من قوة السلاح بمختلف أشكاله وصنوفه حتى نستطيع مواجهة الأعداء بمثل ما يواجهوننا به من سلاح وأكثر .

هذه هى أهم عناصر القوة فى الإسلام وهى ليست مثل القوة المادية التى اصطلح عليها الناس فى عصرنا الحاضر فقوتنا إنما هى قوة فى العقيدة وقوة فى الخلق وقوة فى العلم وقوة فى المال . وقوة فى التماسك الاجتماعى وقوة فى التنظيم السلمى . وقوة فى التربية النفسية . وقوة فى الاستعداد الحربى أيضاً . وسيادة الأمة وقيادتها منوطة بتوفر هذه القوى مجتمعة فى الأمة . قال تعالى: « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ».

وقد كانت هذه القوى هى العامل الأساسى فى نجاح الأمة الإسلامية فى أول دور من أدوار حياتها القيادة التاريخية .فما كادت تجتمع لهاهذه العناصر حتى آل إليها ميراث الأرض . ووضع فى يدها قياد الأمم ووكل إليها إخراج العباد من عبادة الأوثان إلى عبادة الملك الديان . ومن عبادة العباد إلى عبادة الله مالك العباد وخالق العباد ، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وباجتماع هذه العناصر أصبحت الأمة رفيعة البنيان عظيمة السلطان . ثابتة الأركان باذخة الذرا عظيمة الشأن . حتى تم لها وعد الله الذى لا يتخلف وهو الاستخلاف فى الأرض . وتمكين دينهم ومبادئهم ، ونشر الأمان والسلام فى ربوع خلافتهم وما يكون تحت سلطانهم. وهذا أقصى ما تتمناه الأمم والشعوب فى العالم وتسعى إليه . وتعمل من أجله .

قال تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدوننى لايشركون بى شيئاً** » (سورة النور آية ٥٥)

ولقد دام للأمة الإسلامية هذا المجد واستمر فيهم هذا العز حينما صدقوا مع الله وجاهدوا فى الله حق جهاده . وكانوا حراساً أمناء على شريعة الله ودينه المستقيم وقد مكن لهم فى الأرض حتى امتد ظلهم إلى ثلاث قارات من القارات الخمس للكرة الأرضية وقالوا فيهم لقد امتد ملك المسلمين من فرغانة إلى غانة أى من أقصى آسيا إلى أقصى أفريقيا وما زالت تلك حالهم حتى غيرت الأمة ما بنفسها وأخلفت ما عاهدت الله عليه وتقاعدت عن جهادها وعزت عليها دنياها الفانية فغيرت فغير الله ما بها . وطبق عليها سنته فى الاجتماع البشرى وقد رسمها الله فى كتابه العزيز إذ قال : « **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » . (الأنفال آية – ٥٣)

ومن أهم العوامل التى أدت إلى هذا التغيير هى : التنازع على الحكم والسلطان والتعصب للقومية والجنس والنسب . والاختلاف فى أصول الدين وفروعه . وارجاف المرجفين ودسائس المستعمرين والابتعاد عن روح الإسلام ونبذ تعاليمه السماوية الرفيعة والتعلق بظواهر تنسب إلى الإسلام وليست منه فى شىء وترك حقائق الإسلام وجواهره

الناصعة والاستغناء بالابتداع عن الاتباع . وعدم الانصياع لدعاة الإصلاح بل ونضوب دعاة الإصلاح والجهالة السوداء بحقائق الإسلام وقد منى المسلمون ونكبوا بالجهل بمبادئ دينهم، والإنسان عدو ما جهل.

وقد أثرت هذه العوامل مجتمعة فى كيان الأمة وحيويتها . وأضعفت من دورها الحضارى والقيادى معاً . وأصيبت ببلايا ومحن لو نزلت على الجبال لهدتها . وقد أصيبت الأمة الإسلامية بضعف فى العقيدة وانحطاط فى الخلق وتخلف فى العلم وفقر فى الدين . وتفكك فى الروابط . وفساد فى الحكم ، وفوضى فى كل شيء وفى كل شأن من شئونها مما عرضها للغزو الأجنبي . والاستعمار الخارجى وأطمع فيها أخس خلق الله وشر عباده الذين لعنهم الله شر لعنة وهم اليهود ومن والاهم وقد كانت هذه الوطأة التى أصيبت بها الأمة شديدة عليها وقاسية ومهلكة وقد كان من أثر الاستعمار الغاشم الخبيث أن شكك الأمة فى دينها وأبعدها عن فهمه وفهم حقائقه وغير من أخلاقها وشوه حضارتها وسلبها الثقة بنفسها وأعطى لنفسه القوامة على حكمها وتشريعها . وعلى علومها وفنونها وعلى ثروتها واقتصادها .

وتمكن من القضاء على الكثير من جيوشها وقوتها العسكرية . ونجح فى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وتمزيق الكيان الإسلامى إلى طوائف وشيع وأحزاب وفرق متباعدة متناحرة متدابرة متقاطعة يلعن بعضها بعضاً وابتلاها بانقلابات عسكرية دمرت وحدتها ومزقت شملها ونكبت جيوشها شر نكبة . ولم يدع أعداؤنا الخبثاء فرصة لتحطيم مقومات

هذه الأمة ومحاولة إفناء شخصيتها إلا وسعوا إليها فى مكر وخبث ودهاء وتبرير وإحكام .

وقد استطاعوا - قاتلهم الله - بمحاولاتهم الماكرة ومؤامراتهم القذرة أن يحققوا الكثير مما استهدفوه من تحطيم جميع مقومات هذه الأمة الإسلامية والإجهاز عليها فى كل سبيل ولكنهم عجزوا بفضل الله من القضاء على روح هذه الأمة وإفقادها معنوياتها وتمسكها بدينها والاعتزاز برسالتها والالتفاف حول نبيها الأعظم وقائدها الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . والطواف حول كعبتها التى شرفها الله وجعلها مثابة للناس وأمناً وهى دعامة الإسلام كما ذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعتزاز بكتاب الله العظيم والاعتصام بحبل الله المتين .

وإنه على أثر هذه الضربات الموجعة والمتوالية والتى بدأت دول الكفر كلها مجتمعة تنزلها بالأمة الإسلامية فى كل حدب وصوب فإن الأمة بدأت تستيقظ من غفلتها وتسترد وعيها ، وتتحسس طريقها محاولة انتزاع مكانتها فى قوة وعزم وتصميم بإذن الله وهى وإن لم تبلغ الغاية بعد . إلا أنها مصممة على بلوغها مهما بذلت من تضحيات وتحملت من نكبات . ومتى صح العزم وضح السبيل . وهذه الأمة لن تموت ولن تفنى وقد علمنا التاريخ كيف تنهض إذا هى كبت بها الأيام أو نبا بها الدهر أو جفها الأهل والأصدقاء . لقد انتصرت الأمة الإسلامية عبر القرون الخالية وتغلبت على جميع المحن والكوارث التى نزلت بها وخرجت منها جميعاً مشرقة الوجه ناصعة الجبين .

وكبت الله أعداءها وجعلهم فى الأذلين : « **إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** » . (المجادلة آية ٢٠ — ٢١)

وإن أعداءنا جميعاً من مجوس وشيوعيين ويهود وصليبيين سيكبتهم الله جميعاً ويذلهم ويجعل بأسهم بينهم شديداً إن شاء الله . ولكن من الواجب علينا معشر المسلمين ونحن فى هذه المرحلة الحاسمة الخطيرة من تاريخ حياتنا أن نبدأ نحن بتغيير جذرى جوهرى فى نفوسنا وفى أخلاقنا وأن يكون ذلك التغيير عاماً وشاملا بالنسبة للخاصة والعامة . وأن يكون على أساس مدروس وخطة محكمة لكى نتقى أسباب الانحلال والضعف من جهة ونأخذ بأسباب القوة والعزة من جهة أخرى .

وأسباب القوة ليست فى فوضى الأخلاق ولا فى التحلل من الآداب ، ولا فى التشكيك فى المثل والقيم ، ولا فى تقليد الشرق والغرب ، ولا فى استيراد المبادئ من هنا أو هناك .

وإنما هى فى الأصول الخالدة والمبادئ الكريمة السائدة التى جاء بها الإسلام وأعز بها أولئك الأمجاد من سالف أمتنا العزيزة ومن خلال هذه المعركة التى تدور رحاها بين الأمة الإسلامية وبين أمم الكفر والشرك والإلحاد نرى من حق أمتنا علينا أن نذكر بالقوة الحقيقية لنهضتنا المقبلة والعوامل التى تربط حاضرنا المتوثب بماضيها المجيد ونبين وجهة الإسلام على حقيقتها ولتتضح الحركة الإسلامية على أنها حركة تقدمية صحيحة ثابتة راسخة تستهدف تغيير أوضاع الحياة وإرساءها على قواعد راسخة

لا تبلى جدتها . ولا تهن قوتها وانها سبقت جميع المبادئ التى اهتدت الإنسانية إلى بعضها . فضلا عن انها أسمى منها وأكمل وأعلى وأجل .

إن الإسلام قوة حقيقية فى ذاته ولكن المؤسف المحزن أن المنتسبين إليه هم الذين تسرب الضعف إلى نفوسهم بانحرافهم عنه ، فشوهوا جماله وحجبوا نوره وكانوا حجة لأعدائه ، ودليلا فى يد خصومه وسلاحاً يشهرونه فى وجوه دعاة الإسلام وخسر العالم بذلك هداية الله ورحمته المهداة إلى قلوبهم . وانطفأ أمامهم ذلك المصباح العظيم الذى شعت أنواره فى مشارق الأرض ومغاربها .

وواجب المسلمين اليوم أن يتقدموا الصفوف ويحملوا مشاعل النور لهداية الناس ، وقيادة الناس ، وإمامة الناس ؛ فقد خلت البشرية فهى اليوم فى أمس الحاجة إلى دعوة صادقة تنير لها الطريق وتهديها إلى سبيل الرشاد ، وتنقذها مما هى فيه من القلق والانحطاط والتدهور . وقد آن للمسلمين أن يفقهوا الإسلام ويعوا ما فيه ويتمثلوه فى كل ناحية ويجسلوه بالعلم والعمل . حتى ترتفع أعلامه ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وقد آن للمسلمين أن يسلكوا سبيل القوة فهى سبيل دينهم وطريق رسولهم عليه الصلاة والسلام . يقول تعالى : « **خذوا ما آتيناكم بقوة** » . ويقول : « **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** » . والدين بغير قوة مجرد فكرة مضيئة قلما يعيرها الناس الاهتمام . يقول شاعر الإسلام محمد إقبال

رحمه الله : « الدين بغير قوة فلسفة محضة » إن أهم ما يشغل الناس اليوم إنما هو الخبز وتوفير شهوات الجسد .

أما الاهتمام بالدين والحق والمثل العليا والقيم الروحية ، فما أشد انصراف الناس عنها اليوم . بل ما أشد خصومتهم لها ومكائدهم لأصحابها . ومن ثم . فقد كان من الضروري جداً أن نكون للدين قوة تحميه . وللحقائق الإلهية سياج يصونها . ولولا هذه القوة وهذا السياج ما بقيت كلمة الله ولذهبت معالم الهداية . قال تعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً** » (الحج آية ٤٠) .

والإسلام العظيم لا يتجاهل هذا الواقع ويقف أمامه مكتوف اليدين بل أمر بالقوة وإعداد القوة ، وهو لهذا وجه أنظار أتباعه إلى هذه الحقيقة وأنه لا قيام له إلا إذا كان له سند من حديد ومن قوة هي أقصى قوة . والحديد رمز القوة وآلتها القوية . لذا قال تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** » . (الحديد آية ٢٥)

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه أخذ المصحف بيد والسيف بيد أخرى وقال : بعثت بهذا وبهذا لأقوم بهذا من صد عن هذا . قال الشاعر :

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجـــدى على الدنيـا من السلم

والإسلام مع توجيه أتباعه إلى الأخذ بالقوة فإنه زودهم بعناصرها حتى يبقى كيانهم مصوناً . وكى يستطيعوا أن يقوموا برسالتهم الإنسانية التى انتدبهم الله لها وجعلهم خلفاءه فيها وشهداءه عليها . ومع أمره تعالى بإعداد أقصى القوة فإنه تبارك وتعالى جعل رسالتهم رسالة الأمن والسلام وما الحرب فى الإسلام إلا ضرورة من الضرورات التى يلجأ إليها الإسلام بعد بذله كل شىء فى طريق الأمن والسلام . وهو لا يحب الاعتداء مطلقاً إلا على من اعتدى عليه قال تعالى : **« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »** (البقرة آية ١٩٠) .

• • •

القوة والسلام في الإسلام

لا نعلو الحقيقة والواقع إذا قلنا إن الإسلام دين السلام والسلام مبدأ من مبادئ الإسلام العظيمة . ودعوة السلام ليست جديدة علينا ولا غريبة عنا وإنما هي دعوة استقرت في ضمائرنا وجاء بها إسلامنا وقد عمق الإسلام جذور هذه الدعوة حتى أصبحت عقيدة فينا . لقد نادى الإسلام منذ طلع فجره وأشرق نوره بالسلام ووضع الخطة الرشيدة التي تصل بالإنسانية إليه ولفظ الإسلام الذى هو عنوان على

هذا الدين . مأخوذ من مادة السلام لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الطمأنينة والأمن والسكينة . ورب هذا الدين تبارك وتعالى من أسمائه « **السلام المؤمن** » لأنه يؤمن الناس بما شرع من مبادئ وبما رسم من خطط ومناهج أرسل بها خير البشر وصفوة الدنيا وخلاصة الإنسانية وهم أنبياؤه ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام .

وحامل رسالة الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو نفسه حامل راية السلام لأنه يحمل إلى البشرية الهدى والنور والخير والرشاد والمحبة والوئام وهو عليه الصلاة والسلام يحدث عن نفسه

فيقول : « إنما أنا رحمة مهداة » وتحدث القرآن عن رسالته فيقول : « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » (الأنبياء آية ١٠٧) وتحية المسلمين التي تؤلف القلوب وتقوى الصلات وتربط الإنسان بأخيه الإنسان إنما هي : السلام ، وبذل السلام للناس وافشاؤه جزء من الإيمان وقد جعل الله تحية المسلمين بهذا اللفظ للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمان وأنهم أهل السلم ومحبو السلام وفى الحديث الشريف يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا » وما ينبغى للإنسان أن يكلم إنساناً قبل أن يبدأه بالسلام يقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم : « السلام قبل الكلام » . وسبب ذلك أن السلام أمان ، ولا كلام إلا بعد الأمان . والمسلم مكلف وهو يناجى ربه أن يسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين . فإذا فرغ من مناجاته لله وأقبل على الدنيا أقبل عليها من جانب السلام والرحمة والبركة .

وفى ميدان الحرب والقتال . إذا أجرى المقاتل كلمة السلام على لسانه وجب الكف عن قتاله . يقول الله تبارك وتعالى : « **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً** » (سورة النساء : ٩٤)

وتحية الله للمؤمنين سلام : « **تحيتهم يوم يلقونه سلام** » .
(الأحزاب ٤٤)

وتحية الملائكة للبشر فى الآخرة سلام « **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم** » (الرعد ٢٣) . ومستقر الصالحين دار الأمن والسلام « **لهم دار السلام عند ربهم** » . (الأنعام ١٢٧)

وكثرة تكرار هذا اللفظ ـ السلام ـ مع إحاطته بالجو الدينى النفسى . من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها ويوجه الأفكار والأنظار إلى هذا المبدأ السامى العظيم . مبدأ السلام الذى قلنا إنه من مبادئ هذه الرسالة الربانية السامية . الإسلام .

والإسلام حينما دعا إلى القوة وأمر بإعداد القوة جعلها قوة موجهة بناءة تحافظ على الأمن والسلام . وترهب أعداء الله حتى يحصل التوازن فى القوة وبهذا يحفظ السلام قال تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » .
(الأنفال : ٦٠)

ومن النظر فى هذه الآية الكريمة يرى المدقق فى كلماتها النبرة لفظ القوة المنكر فهو يفيد العموم فى كل قوة وكل ما يطلق عليه اسم القوة برية أو بحرية أو جوية فالمسلمون مأمورون بأن يعدوا لأعدائهم أقصى قوة عرفها عصرهم ، واللفظ الآخر قوله تعالى : « **ترهبون به** » ولم يقل تستعبدون أو تستذلون أو تعتدون . ولكن قال تعالى : « **ترهبون** » وإذا عرف عدوك إنك قوى ومسلح رهبك وكف عن حربك وهنا يحفظ السلام ويكون التوازن بين الحكومات والشعوب . وهذا ما يسمى بالعرف الدولى الحاضر بالسلم المسلح .

فالإسلام أول من دعا بهذه الدعوة « السلم المسلح » . فى الدنيا ، وما كانت الفتوحات الإسلامية والحروب التى خاضها الإسلام إلا لأغراض سامية وأهداف عالية أرادوا بها للناس الهداية والرشد .

لا كما يقول أعداء الإسلام إن الفتوحات الإسلامية كانت لغايات اقتصادية أو أهداف توسعية .

إن الإسلام يهتم بدعوة الناس إلى الدخول فى هدايته لينعم العالم بهذه الهداية ويستظل بظلها الظليل الوارف ، والأمة الإسلامية هى الأمة المنتدبة من قبل الله لإعلاء دينه وتبليغ وحيه وهى منتدبة كذلك لتحرير الأمم والشعوب . وهى بهذا الاعتبار كانت خير الأمم ، وكانت مكانتها من غيرها مكانة القيادة والريادة وما دام الأمر كذلك فيجب عليها أن تحافظ على كيانها . وتنافح لتأخذ حقها بيدها أو تجاهد لتتبوأ مكانتها التى وضعها الله فيها وكل تقصير فى ذلك السبيل يعتبر من الجرائم الكبرى التى يجازى الله عليها بالذل والانحلال أو الفناء والزوال .

وقد نهى الإسلام عن الوهن والدعوة إلى السلم طالما لم تصل الأمة إلى غايتها ولم تحقق هدفها واعتبر السلم فى هذه الحالة لا معنى له إلا الجبن والرضا بالدون من العيش وفى هذا يقول الله تبارك وتعالى :
« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (سورة محمد آية ٣٥)

أى أنتم الأعلون عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً وعلماً وعملا ونصراً وتأييداً .

فالسلم فى الإسلام ليس معناه الاستسلام بل لا يكون إلا عن قوة وكفاية واقتدار ، لذلك لم يجعله الله مطلقاً بل قيده بشرط أن يكف العدو عن العدوان وبشرط ألا يبقى ظلم فى الأرض ، وألا يفتن أحد

عن دينه ، فإذا وجد أحد هذه الأسباب فقد أذن الله بالقتال والجهاد فى سبيله وفى الجهاد تسترخص الأنفس ويضحى فيه بالمهج والأرواح .

ولا يوجد دين من الأديان دفع بأهله إلى خوض غمرات الحروب وقذف بهم إلى ساحات القتال فى سبيل الله والحق وفى سبيل المستضعفين ومن أجل الحياة العزيزة الكريمة ومن أجل العقيدة الحقة غير الإسلام بل جعل الإسلام الجهاد هو الإيمان العملى الذى لا يكمل الدين إلا به قال تعالى : « **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** » . (العنكبوت آية ٢ – ٣) ويوضح سبحانه وتعالى أن **هذه سنة الله** مع المؤمنين وأنه ليس للنصر ولا للجنة سبيل الا الجهاد . قال تعالى : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** » . (البقرة : ٢١٤)

ويكشف سبحانه وتعالى عن نفسية المؤمنين ، وأن من شأنها الاستماتة فى الدفاع . فهم بين أمرين لا ثالث لهما : إما قاتلين وإما مقتولين . فيقول تعالى : « **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون** » . (التوبة : ١١١)

وفى الحالة الأولى لهم النصر . وفى الثانية لهم الشهادة وكلاهما مطلب عظيم يسعى إليه المؤمنون ويرجون الله أن يكرمهم به .

« قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » .
(التوبة آية ٥٢)

هذه ملامح مختصرة عن عناصر القوة فى الإسلام والمسلمون اليوم مدعوون إلى أن يعيدوا النظر فى موقفهم ويعدوا ليوم الغد عدته فإن أعداء الإسلام من كل حدب وصوب قد شمروا عن ساعد الجد ، ووهبوا أنفسهم للشيطان وأعدوا عدتهم لحرب الإسلام وإبادة المسلمين وتآمروا وتحالفوا والكفر ملة واحدة ونحن إذ نقول هذا نعلم يقيناً أن الله سيجعل كيدهم فى نحورهم وسينتصر الإسلام رغم أنوفهم ولكن الويل على من قصر من المسلمين والويل على من تخلف فى ساعة العسرة وهذا أوانها وهذا يومها الشديد .

فعلى المسلمين أن ينتبهوا إلى ما يراد بهم وبديارهم وأمتهم ودينهم ويجمعوا كلمتهم ويعتصموا بحبل الله المتين وقبل كل شيء أن يعودوا إلى ربهم عوداً حميداً ويلجأوا إليه لجوءاً صادقاً ويعتصموا به تعالى ويعبدوه حق عبادته ويجاهدوا فى سبيله حق الجهاد ويخلصوا له تعالى القول والعمل وسيرون بعد ذلك كيف يأتيهم النصر من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

نسأل الله أن يحقق ذلك انه تعالى نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

متى تفنى الأمم .. ومتى تبقى

هذه خلاصة محاضرة كنت قد ألقيتها فى مقديشيو عاصمة جمهورية الصومال . إذ ذهبت إليها مبعوثاً خاصاً من قبل الملك المسلم الشهيد فيصل بن عبد العزيز رحمه الله وأسكنه الجنة .

وكان يرافقنى فى رحلتى هذه الأخ الأستاذ نعمان طاشكندى وكان يومها مديراً لجريدة الندوة الغراء التى تصدر بمكة المكرمة ولما عدنا من الرحلة كتب سلسلة من المقالات كانت هذه إحداها ، ونشرت فى يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩١ بجريدة الندوة . . ولارتباط هذا الموضوع بكتابى هذا أحببت أن أنقلها كما هى من غير تصرف والله تعالى الموفق .

« الصواف »

قالت جريدة الندوة :

وفى المساء : كان موعد المحاضرة الثانية بمسجد مرواس . . أكبر مساجد مقديشيو العاصمة وفى هذا المسجد الجامع الكبير ، اكتظ ألوف من المواطنين من مختلف الطبقات من العلماء وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، والعسكريين من ضباط الجيش والبوليس ، وكبار المواطنين والقضاة ، وعدد كبير من رجال التربية والتعليم ، وأعضاء البعثة التعليمية الأزهرية وألوف من الشباب من مختلف فئاته ازدحم بهم جميعاً المسجد الكبير برحبته الواسعة وملحقه الجانبي ، حتى لم يبق مكان لموضع قدم كما امتلأت الشوارع المحيطة بهذا المسجد بعدد من المواطنين لا يحصيهم عد . . يستمعون من خلال مكبرات الصوت التى كانت تنقل إليهم وقائع المحاضرة الإسلامية .

الواقع أنى رأيت مشهداً دينياً مؤثراً ، وجمعاً إسلامياً حاشداً ، لم أشهد مثيله من قبل فى حياتى ، كثرة فى العدد والتفافاً حول الآراء المعروضة والتزاماً ووفاء للدين ومشاعر حب صادقة منطلقة ، وحرصاً على سماع كل كلمة ، ينطق بها مبعوث إمام المسلمين فيصل ابن عبد العزيز ، وحامل تحيات سكان الحرمين الشريفين والمملكة العربية السعودية . . الشيخ الداعية الإسلامى محمد محمود الصواف ، إلى الشعب المسلم بالصومال الشقيق .

والصومال ذاتها لم تشهد مثل هذا الاجتماع الدينى الكبير المؤثر ، كما ذكر ذلك وأكده بعض المسئولين الصوماليين .

وبعد صلاة المغرب مباشرة بدأت المحاضرة التى استمرت حوالى ساعة ونصف الساعة بالقرآن الكريم وبعد تلاوة آى من الذكر الحكيم قدم مدير الشئون الدينية بالصومال المحاضر الشيخ محمد محمود الصواف ، ووسط مظاهر رائعة من الإجلال والمحبة بدأ الشيخ الصواف محاضرته التى أقتطف منها بعض الفقرات قال الشيخ الصواف : إن لكل أمة قواعد ومقومات وأسسا ، ترتكز عليها ، ولكل أمة حضارية أخلاق ومثل وسمات بارزة تتميز بها وتحافظ عليها . وهى تبقى ما بقيت لها هذه القواعد والأسس لذا فهى تجاهد من أجلها ، وتدافع للحفاظ على كيانها وبقائها وأصالتها . لأنها تعلم أنها إذا فقدت أخلاقها ومقوماتها وقواعد دينها ومثلها العليا ، فقد مسخت وفنيت وزالت من الوجود وإن بقى رجالها ونساؤها وشبابها .

والأمم فى الواقع لا تفنى فناء مطلقاً ، ولكن الذى يفنى هم الأفراد إذ يموتون وينتقلون إلى الدار الآخرة .

أما الأمة فهى باقية ما بقيت لها أصالتها ولغتها ودينها وأخلاقها وقواعد حضارتها المتميزة عن الأمم الأخرى . أما إذا فنيت فيها هذه القواعد وخسرت دينها ومثلها وأخلاقها وعاداتها وثقافتها وقلدت غيرها من الأمم تقليداً أعمى وأخذت عنها وسارت وراءها من غير تبصر ولا تعقل . فها هنا الزوال وها هنا الفناء والوبال فإذا تبدل دينها وفسدت أخلاقها وتغيرت آدابها ولغتها وعاداتها ماذا يبقى لها غير الأسماء التى لا تدل على منسمياتها .

أود هنا أن أضرب لكم بعض الأمثلة من الأمم السابقة التى سادت ثم بادت كما يقول المؤرخون وقد كانت لها حضارات معروفة وكيان مستقل وشخصية قائمة ولكنها انتهت وزالت وفنيت فى أمة أخرى وإن بقى أحفادها ورجالها ونساؤها .

وهذه الحضارات الفينيقية والآشورية والفرعونية .

يقولون : إنها سادت ثم بادت . والبائد إنما هو الزائل الفانى وقد زالت هذه الحضارات وبادت حينما زالت حضارتها وتبدلت أشكال حياتها ، وتغيرت حقيقة عقيدتها ، وزالت لغتها وأصبحت كلها بعد هذا التغيير أمماً أخرى لا تمت إلى تلك الحضارات البائدة بصلة ما .

فالآشوريون فى العراق انتهوا وبادوا وإن بقيت لهم آثار وأحفاد من الناس ، والعراق أمة عربية مسلمة لا ارتباط لهذا الشعب العربى المسلم بتلك الأمة البائدة من الآشوريين ، وكذا الحال بالنسبة إلى الفينيقيين فى سورية ، وكذا الفراعنة فى مصر ، فسورية ومصر بلدان عربيان مسلمان لهما كما للعراق وبقية البلاد العربية والإسلامية حضارتها وثقافتها ودينها الحنيف وأصالتها ولغتها وأخلاقها المتميزة وما من أحد يعتز بدينه ، ويؤمن به وبحضارته وأصالته ويلتزم بأخلاقه وأخلاق أمته ، ويحافظ على عاداته الموروثة ويستمسك بتقاليد أمته ما من أحد يؤمن بكل ذلك يستطيع أن يشارك فى مسخ أمته وتغيير معالمها وأصالتها وحضارتها

* * *

ومثل آخر : الأندلس ، كما تعلمون كانت بلاداً إسلامية وعربية ، ولو لاحظت اسم أى إنسان منهم لرأيت اسم الجد الخامس أو السادس عبد الرحمن أو محمد . . واسمه اليوم مارسيل أو أنطون أو ميشيل .

هل نستطيع أن نسمى أسبانيا اليوم – أندلس الأمس أمة إسلامية أو عربية . . لا ، لأن دينها تبدل وحضارتها تبدلت ، فسخت ، وأصبحت شيئاً آخر .

ونحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لنا مقومات ولنا صفات ، ولنا أصالة ولنا حضارة ، ولنا لغة ودين وقرآن ، فمن حاول أن يحرفنا عن ديننا وحضارتنا ولغتنا ، فإنه يحاول أن يزيلنا من الوجود . . ومن حاول أن يربينا غير التربية المحمدية وغير التربية الإسلامية ، وأن ينطقنا بغير العربية ، ويحول عقيدتنا من عقيدة التوحيد ، إلى عقيدة الشرك ، والعياذ بالله وإلى عقيدة الملحدين والمنحلين من العلمانيين أو الشيوعيين الحاليين وأن يطبق فينا تجارب أولئك الذين ضاعوا أو تاهوا فى الكون ، لا يدرون ما هى عقيدتهم ولا إلى أين هم سائرون .

هؤلاء الذين يفعلون ذلك أو يحاولون ذلك ، يمسخون أنفسهم ولا تبقى لهم عروبة ولا إسلام .

أيها الإخوة : لو رأيتم شاباً أطال شعره وأظافره ولبس الضيق من الثياب ومشى فى القذر وفعل المنكر . . لقلتم عنه رأساً ، هذا خنفس . . هذا من الخنافس أو الهبز ، لماذا لأنه انسلخ من حضارته وعاداته وانسلخ من عروبته وإسلامه . . شكله تغير . . وعقيدته تغيرت ، وحضارته

تغيرت فمسخ ، وأصبح فرداً آخر انسلخ من أمته وانتمى إلى هذه الفئات الضالة الضائعة .

هذه المقدمة . . أردت أن أقدم بها اليوم لحديثى إليكم ، وأعلم أن كل واحد منكم غيور على دينه وحضارته ولغته وثقافته الإسلامية العربية .

إن الأمم ذات الحضارات العظيمة لا تفرط فى حضارتها فالحضارة أمانة ، وواجب الأسلاف أن ينقلوها إلى الأخلاف ، إلى الأجيال التى تليهم . . ونحن واجبنا أن نأخذ حضارتنا ونحافظ على دينا ومصدر قوتنا ، ونستمسك بها ثم ننقلها إلى من بعدنا من أبنائنا وشبابنا ، ونسائنا وفتياتنا إذا نقلناها بأمانة حفظناها ، وإذا لم نرب أبناءنا على تربيتنا عاشوا عيشة أخرى وضيعناهم ، وضيعنا الأمانة ، إذا لم نربهم على الإسلام مسخوا إلى شكل ليس هو منا ولسنا منه .

ولأضرب لكم مثلا بالأمم ذات الحضارة الحديثة . . لا أريد أن أغرق فى التاريخ بل سأضرب أمثلة من العصر الحاضر . . من أمريكا وروسيا .

إن أكبر مرب فى أمريكا ، يسمونه (جون ديوى) هذا المربى الأمريكى يقول : إن التربية بضاعة محلية ، لا تستورد ولا تصدر ، كل أمة لها تربية مستقلة بذاتها ، محتفظة بتاريخها ، ويقول : إننا أخطأنا حينما جئنا ببعض الإنجليز ، يربون جيلنا ، لأنهم حرفوه إلى التربية الإنجليزية . . ولم يوجهوه إلى التربية الأمريكية

الصرفة .. ولذلك استغنينا عنهم ، ولن نسمح لمدرس غير أمريكى أن يدخل مدارسنا ، ويعلم جيلنا كما نريد ، إنما الذى يربى أجيالنا هم الأمريكان وحدهم انظروا الأمة التى تريد البقاء .. تريد أن تحتفظ بحضارتها وقوتها .. تبقى وتحتفظ بنوعية تربية أجيالها ، وهذا أيضاً ما قاله مرب سوفيتى كبير .. قال هـذا المربى فى كتاب أصدره .. إننا ندرس التكنولوجيا والعلوم الأخرى لأبنائنا ، ونربى إلى جانبها الفكر الاشتراكى ، وكل إنسان يريد أن يتحول عن الفكر الاشتراكى ، لن نسمح له بدخول مدارسنا .. إننا نريد أن نربى إلى جانب الفكر الصناعى والطبى والهندسى التربية الاشتراكية .. التزاماً بخط وتربية ماركس ولينين ، ولن نسمح لغير شيوعى ، حتى ولو كان من روسيا ، أن يدخل مدارسنا ويربى أبناءنا .

هاتان الأمتان ، أمتا الحضارة فى عالم اليوم أضرب بهما مثلا كيف أن كل دولة منهما تريد أن تحتفظ بحضارتها ، وشبابها وتربية على خط حياتها وحضارتها وتربيتها حفاظاً على وجودها ، كيف كان هذا الوجود وهما تعلمان لو أنهما لم تفعلا ذلك لتحولت الأجيال عن حضارتهما وواقعهما الحالى .

تعليق الجريدة على المحاضرة

وبعد ذلك واصل الشيخ الصواف حديثه عن التربية الإسلامية وأثرها لدى الأمة العربية . .

ولكنى أريد أن أقول : إن أهمية هذا الكلام وتوجيهه إلى وزارة التربية هناك بالذات ، وفى كل بلد إسلامى عامة . . تأتى هذه الأهمية لأنها جاءت فى ثانى يوم من محاضرة ألقاها وزير التربية الصومالى الذى كان قد عاد لتوه من كوريا الشمالية ، وتحدث فى تلك المحاضرة عن التجربة الكورية الجديدة فى مجال التربية ، وإمكان الاستفادة منها فى الصومال .

إن محاضرة الشيخ الصواف هذه إذا كانت موجهة فى الدرجة الأولى إلى رجال التربية والتعليم فى البلد المسلم الصومال ، وكدعوة مخلصة لحماية الثقافة الوطنية من أن تشوبها تجارب الأمم الأخرى ، فإنها بلا شك تصلح كذلك . . أن تكون صرخة تحذير لنا هنا أيضاً ، وفى كل بلد نام ، يحاول أن يتقدم . . فى العالم الثالث . . إن الاستفادة من معطيات الحضارة الحديثة فى مجال التكنولوجيا والهندسة والطب والصناعة وغيرها شىء .. ونقل الفكر العقيدى والثقافى للشعوب الأخرى شىء آخر.

إن الاستفادة من معطيات الحضارة الحديثة واجب ، ومسئولية ، وعمل وطنى ، وذكاء ووعى ، وإيمان ، أما نقل ثقافة الشعوب

الأخرى وفكرها ومعتقدها ، ونقل تجاربها فى المجال التربوى . عمل لا مسئول ، وعدم قناعة بقدر العطاء الفكرى للبلد ذاته ، ومحاولة للمسخ لا يقدم عليها إلا الذين مسخت أفكارهم وإلا الذين يريدون لأمتهم أن تمسخ ، وأن تضيع ، وأن تذوب . وما يفعل ذلك إلا الضالون وما يفعل ذلك إلا الذين لا يؤمنون بقدرتهم على العطاء الصحيح ، وهل هم إلا جاهلون ومضيعون .

ومامن أحد يؤمن بحضارته ، ويعتز بثقافته ، ويلتزم بدينه ويحافظ على عاداته ، الموروثة ويستمسك بتقاليد أمته المعطاء وما من أحد يؤمن بكل ذلك يستطيع أن يقدم على شىء من ذلك . . أخيراً من يملك ناجزاً لا يبحث عن تجارب .

• • •

فى القرآن العظيم

قصة وعاقبة غنى كبير بطر النعمة وكفرها

إنها قصة قارون الغنى الكبير ، الذى كان من قوم موسى عليه السلام وكان ابن عمه أى ابن أخى أبيه الشقيق ، فبغى . وتجبر ، وتكبر . وبطر النعمة ، وأنكر فضل الله عنيه ، وزعم أنه أوتى المال على علم عنده . ولم يعلم بأن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، وخرج على قومه فى زينته بطراً متجبراً ، متكبراً متبختراً ، فقال أهل الدنيا ومحبوها وعاشقوها : « **يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** » . (القصص آية ٧٩)

أما المؤمنون الصادقون المستبصرون ، والذين أوتوا العلم والفقه والدين. فقالوا لأولئك البسطاء الجهلاء البلداء من عشاق الدنيا وعابديها والذين أعماهم بريقها وحبها وزينتها الزائلة والفانية فقالوا لهم : « **ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون** ». (القصص آية ٨٠) وجاء حكم السماء ، ونزل بطش الله العزيز الحكيم ، وذهب المال وصاحب المال البطر الأشر . والدار التى جمعت الكنــوز التى كانت تنوء بالعصبة أولى القوة مفاتحها . والعصبة قد يصل رجالها إلى أربعين رجلا . ومع هذا لا يستطيعون حمل مفاتح الكنوز التى

أوتيها قارون . فماذا كان بعد ذلك ؟ الخسف والهوان والضياع ، والذل والعذاب الدائم ، والأسف والندم لأولئك الذين تمنوا مكانة قارون بالأمس من أهل الدنيا وعشاقها وقالوا : « **لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا. ويكأنه لا يفلح الكافرون** » ومعنى قوله تعالى : « **ويكأنه** » : ألم تر أنه لا يفلح الكافرون .

أكتفي بهذه الكلمات لأسوق لقارئي الكريم الآيات القرآنية التي وردت في شأن هذا الغني الجبار المتكبر المتجبر . وكم في عصرنا وزماننا من أمثال هذا القارون ! ، ولكن أين المعتبرون ؟ والمستبصرون والمفكرون ؟

قال الله تبارك وتعالى في آخر سورة القصص :

« **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتو العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه**

من دون الله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون » .

(القصص : ٧٦ – ٨٢)

والنتيجة النهائية بعد هذه الآيات الكريمات النيرات ، والتى فيها من العظات الباهرات ، ما يكفى ذوى العقول النيرات ، النتيجة الحتمية والخلاصة الكاملة هى : كما قال تعالى بعد تلك الآيات كلها وبعد بيان مصير الغنى الكبير قارون . قال وهو أصدق القائلين سبحانه وتعالى :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين » . (القصص آية ٨٣)

والحمد لله أولا وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

كلمة ختامية مهمة

وددت أن أختتم هذا الكتيب الصغير بآية وقصة وخبر وفيها عبرة لمن اعتبر . وليعلم الناس عظمة الله ، وجلال الله ، وسعة رحمته عز وجل التى وسعت كل شىء وأنه تبارك وتعالى ما توجه إليه أحد من عباده بالتوبة الصادقة ، إلا عمه بالرحمة ، وشمله بالمغفرة والرضا ، بل وأكثر من ذلك تكرم وتفضل فبدل سيئآت وذنوب العبد التائب إلى حسنات ، وهو عز وجل الغفور الرحيم ، الذى يغفر الزلات ، ويقيل العثرات ، ويمحو السيئات .

قال الله تبارك وتعالى بعد أن ذكر أصنافاً من المنكرات التى قد يقع فيها بعض العباد: « **ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ». (الفرقان آية ٦٨ ـ ٧٠)

أرأيتم إلى عظمة الله ، وفضل الله ، على عباده كيف يغفر الذنوب جميعاً ويبدلها إلى حسنات ؟ . وأرجى آية فى كتاب الله كما يقول العلماء هى قوله تعالى مخاطباً نبيه العظيم محمداً صلى الله عليه وسلم ، أن يقول

ويبلغ عباد الله الذين أسرفوا على أنفسهم ووقعوا فى الذنوب والسيئات والعثرات قال تبارك وتعالى :

« **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** » (الزمر آية ٥٣).

وأبواب الجنة كلها مقفلة إلى أوانها وإبانها عند البعث والنشور . إلا باب التوبة ، فإنه مفتوح للتائبين متى تابوا ، وأنابوا إلى الله ، وصدقوا مع الله، وكفوا عن محارمه. فإنهم ينالون رحمته ويدخلون جنته التى أعدها الله للمتقين والصالحين من عباده وجنده الطيبين الطاهرين.

وسنة الله عز وجل مع الأفراد فى مغفرته للتائبين وعفوه عن المذنبين. هى هى سنته سبحانه وتعالى مع الأمم والشعوب فالأمة التى تعود إلى طريق الرشاد وتصدق التوبة والإنابة إلى رب العباد ، يفتح الله لها ، ويرفع من شأنها ، ويعيدها إلى عزتها ومجدها . وينقذها من وهدتها التى انحدرت إليها وينجيها من الخطوب التى هوت إليها ، نتيجة للذنوب التى ارتكبتها والمنكرات التى أشاعتها ، بل ويمتعها الله عز وجل بحياة سعيدة مديدة ويجعل لها الصولة والسلطان ويرزقها الأمن والأمان ، ويستخلفها فى الأرض ويمكن لها فى الأرض وينشر دينها ومبادئها . قال الله تبارك وتعالى :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** » .
(النور آية ٥٥)

وهنا وددت أن اضرب المثل وأذكر الآية والقصة التى أحببت أن أختم بها كتابى هذا الذى أرجو الله أن ينفع به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم .

أما الآية فهى قوله تعالى فى سورة يونس :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها . إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » .

(يونس آية : ٩٨)

وقصة هؤلاء القوم ، وهم قوم يونس عليه السلام فى مدينة نينوى التى تقع شرقى مدينة الموصل فى شمالى العراق ومعنى الآية الكريمة وقصة القوم كما يقول المفسرون وعلى رأسهم الإمام الطبرى رحمه الله. معنى الآية :

يقول الله عز وجل : **« لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بأس الله . إلا قوم يونس »** قيل : إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم وفقدوا يونس عليه السلام قذف الله فى قلوبهم التوبة وفرقوا بين كل أنثى وولدها ، **« وعجوا إلى الله أربعين ليلة** — أى رفعوا أصواتهم بالتلبية والدعاء — فلما عرف الله صدق توبتهم كشف عنهم العذاب وقال : **« ومتعناهم إلى حين »** أى لم نعاجلهم العقوبة واستمتعوا بآجالهم فى الدنيا إلى حين مماتهم وقت فناء أعمارهم . هذا ما ذكره الإمام الطبرى رحمه الله وبعض المفسرين الآخرين وانظروا إلى قوله :

« وعجوا إلى الله أربعين ليلة . حتى كشف عنهم العذاب » .

وما أحوج أمتنا اليوم أن تعج إلى الله ، وتتوب إلى الله ، وتنيب

إلى الله . ليرفع عنها ما هي فيه من الذل والمهانة والخيبة والاستكانة ويعيدها إلى مجدها وعزها ، ويولي أمورها خيارها ، ويجنبها تولية الصغار والفجار من الأئمة المضلين الذين يهدم بهم الإسلام وتشقى بهم الأمم والشعوب . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأحد الصحابة : أتدرى ما يهدم الإسلام ؟ قال : لا . قال رضى الله عنه : (زلة العلماء وجدال المنافقين ، وحكم الأئمة المضلين) .

نسأل الله السلامة والهداية والرشد والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

محمد محمود الصواف

مكة المكرمة

كتب للمؤلف

١ – صوت الإسلام فى العراق نفـد .

٢ – نداء الإسلام نفـد .

٣ – معركة الإسلام أو وقائعنا فى فلسطين بين الأمس واليوم نفـد .

٤ – المسلمون وعلم الفلك نفـد .

٥ – عـدة المسلمين فى معانى الفاتحة وقصار السور من كتاب رب العالمين نفـد .

٦ – تعليم الصلاة وهو مترجم أيضاً إلى الإنكليزية والفرنسية والأوردية.

٧ – الصيام فى الإسلام .

٨ – زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرات وحكمة تعددهن .

٩ – رحلاتى إلى الديار الإسلامية – أفريقيا المسلمة وصفحاته تزيد على الثمانمائة صفحة مع الصور والخرائط نفـد .

المكتبة القرآنية وقد صدر منها ثمانية أجزاء وهى :

١٠ – القرآن العظيم آثاره أنواره فضائله تفسيره ختمه .

١١ – أم القرآن وخير ثلاث سور أنزلت .

١٢ – نظرات فى سورة الحجرات .

١٣ – بين الرعاة والدعاة .

١٤ ـ القيامة رأى العين .
١٥ ـ من القرآن و إلى القرآن ـ الدعوة و الدعاة .
١٦ ـ النبأ العظيم و القرآن العظيم .
١٧ ـ ثلاث سور من الدرر فى إطراء سيد البشر .
١٨ ـ صرخة مؤمنة إلى الشباب و الشابات .
١٩ ـ لا اشتراكية فى الإسلام .
٢٠ ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام .
٢١ ـ الربا فى نظر الإسلام و موقف العلماء منه .
٢٢ ـ ديوان الخطب لعلامة الموصل الكبير الشيخ عبد الله النعمة
رحمه الله تقديم و نشر و تعليق تلميذه : **محمد محمود الصواف** .
٢٣ ـ أثر الذنوب فى هدم الأمم و الشعوب .
و هو هذا الذى بين يديك .

* * *

فهرس الكتاب

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

يُوَزَّع مجّانًا

مطبعة الصحابة الإسلامية
السالمية - الكويت